الفصل الثاني

المناقشة والترجيح

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثاني
المناقشة و الترجيح

في هـذا الفصل بإذن الله سوف أتعرض لمناقشة الآراء في هذه المسألة ثم أبين ما هو الراجح منها:

مناقشة الرأى الأول: وهم القائلون بالحظر مطلقا:

وقـد اسـتدلوا بالمنقول والمعقول ولكن هذه الأدلة لا تسلم من الرد عليها وها هو الرد عليها بإذن الله

أولاً مناقشة أدلتهم من المنقول:

١- فهـم قد استدلوا على أن هبة الذكور أو الإناث أو عدمها إنما هو مـن مـشيئة الله ولـذلك لا ينبغـي لأحد من البشر أن يتدخل في هـذه المـشيئة و العـناية الإلهـية وذلك لقول الله تعالى ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى: ٤٩ - ٥٠].

ولكـن هـذا الدلـيل لا يحمل على هذا الفهم فإن الفهم الصحيح له أن الإنـسان يأخـذ بالأسـباب العلمـية التي أمر بها وفي نهاية الأمر يترك المـشيئة لله كمـا قال الله سبحانه وتعالى ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٦] ، [وهـذه الآية بينت أن العز والملك بيد الله ومـع ذلـك هـل يمكـن أن يدَّعى إنسان أنه لا يجوز تعاطى الأسباب المؤدية للعز والملك؟؟ وهذه الآية مثل الآية الأخرى التي تبين أن الله هو الـواهب للإنـاث والواهب للذكور والمانع من الإنجاب ولذلك لا ينبغى القـول بمـنع الإنسان من اتخاذ الوسائل للحصول على الأولاد ذكوراً أو إناثـا ، ولا تـضاد بين إرادة الله تعالى ووسائل تحديد جنس المولود ، فالله سـبحانه هـو الـذي سخر هذه الأسباب للإنسان ، والفاعل في كل حال هو لله سبحانه وتعالى وطبقا لمشيئته وإرادته][1] .

ويقـول الدكـتور يوسـف القرضـاوي [ويفـسر عمـل الإنـسان في اختـيار الجـنس: أنـه لا يخـرج عـن المـشيئة الإلهـية بـل هـو تنفـيذ لها فالإنـسان يفعـل بقـدرة الله ، ويـشاء بمشيئة الله ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الإنسان: ٣٠]][2] .

ولا يمكـن أن يـتعلل أحـد بـأن هـذا اعتراض على قضاء الله وقدره لأن الحكمـة مـن الإيمـان بالقـضاء والقـدر كمـا يقول الشيخ سيد سابق رحمـه الله [أن تنطلق قوى الإنسان وطاقاته لتعرف هذه السنن ، ولتدرك هـذه القوانين ، وتعمل بمقتضاها في البناء والتعمير ، وفي استخراج كنوز الأرض وبمـا أودع في الكـون مـن خيرات ، وبذلك يكون الإيمان بالقدر قـوة باعثة على النشاط والعمل والإيجابية في الحياة كما أن الإيمان بالقدر يـربط الإنـسان برب هذا الوجود ، فيرفع من نفسه إلى معالى الأمور: من

(١) مـن هامش كتاب دراسات في قضايا الفقه المعاصر للدكتور محمد فريد الشافعى صـ ٤٤٥ ، ٤٥٥ المصدر السابق .

(٢) كـتاب فـتاوى معاصـرة للدكـتور يوسـف القرضاوى ج١ / صـ ٥٧٦ ط دار القلم الطبعة الحاديه عشر سنة ٢٠٠٥م / ١٤٢٦هـ .

الإباء والشجاعة والقوة من أجل إحقاق الحق، والقيام بالواجب.

والإيمان بالقدر يُرى الإنسان أن كل شئ في الوجود إنما يسير وفق حكمة عليا، فإذا مسّه الضر فإنه لا يجزع، وإذا صادفه التوفيق والنجاح فإنه لا يفَرح ولا يبطر، وإذا برئ الإنسان من الجزع عند الإخفاق والفشل، ومن الفرح والبطر عند التوفيق والنجاح - كان إنسانا سويا متزنا، بالغًا منتهى السمو والرفعة، وهذا هو معنى قول الله سبحانه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: ٢٢ - ٢٣]، هذا ما ينبغى أن نفهمه من القدر، وهو مقتضى فهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه، وفهم أصحابه رضى الله عنهم أجمعين.

وقد دخل رسول الله يوما على الإمام علىّ كرم الله وجهه بعد صلاة العشاء فوجده قد بكر بالنوم، فقال له: هلا قمت من الليل، فقال: يا رسول الله، أنفسنا بيد الله، إن شاء بسطها، وإن شاء قبضها، فغضب رسول الله ﷺ وهو يضرب على فخذه ويقول: «**وكان الإنسان أكثر شيء جدلا**» إن القدر لا يتخذ سبيلا إلى التواكل، ولا ذريعة إلى المعاصي، ولا طريقاً إلى القول بالجبر، وإنما يجب أن يتخذ سبيلاً إلى تحقيق الغايات الكبرى من جلائل الأعمال. إن القدر يُدفع بالقدر، فيرفع قدر الجوع بقدر الأكل، وقدر الظمأ بقدر الرىّ وقدر المرض بقدر العلاج والصحة، وقدر الكسل بقدر النشاط والعمل.

ويذكر أن أبا عبيدة بن الجراح قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما حينما فرَّ من الطاعون: أتفر من قدر الله؟!، قال: نعم أفر من

قدر الله إلى قدر الله . أي يفر من قدر المرض والوباء إلى قدر الصحة والعافية ، ثم ضرب له مثلا بالأرض الجدباء ، والأرض الخصبة ، وأنه إذا انتقل من الأرض الجدباء إلى الأرض الخصبة لترعى فيها إبله ، فإنه ينتقل من قدر إلى قدر . لقد كان يمكن للرسول وصحابته أن يستكينوا كما يستكين الضعفاء الواهنون ، معللين أنفسهم بالفهم المغلوط الذي يتعلل به الفاشلون ، ولكنه جاء يكشف وجه الصواب فلم يهن ، ولم يضعف ، واستعان بالقدر على تحقيق رسالته الكبرى ، ملتزما سنة الله في نصره لعباده . فقاوم الفقر بالعمل ، وقاوم الجهل بالعلم ، وقاوم المرض بالعلاج ، وقاوم الكفر والمعاصى بالجهاد ، وكان يستعيذ بالله من الهم والحزن . والعجز والكسل][1] ا . هـ .

بل إننا نجد أن من العلماء من يجعل هذه القضية ليست بعقائديه فيقول الدكتور محمد الأشقر: [لو فرضنا أن طبيبا استطاع بوسيلة من الوسائل أن يتوصل للتحكم بجنس الجنين فهل معناه أن إرادته غلبت إرادة الله ، إن من اعتقد ذلك يخشى عليه الخروج من ملة الإسلام ، وإرادة الله هى الغالبة ونحن نفذنا من الوسائل مما أعطينا واستطعنا أن نصل إليه والله عز وجل هو الذي أقدرنا على ذلك وهو الذي أوصلنا لهذه النتيجة وخرجت هذه النتيجة بإرادته الكاملة سبحانه وتعالى وهذا يدل على أن المسألة ليست عقائدية قطعاً][2] .

٢- وقد استدلوا أيضا بأن الله خلق الإنسان بوضع معين وكيف خاص فلا ينبغى لأحد أن يتدخل لهذا التغير وهذه الكيفيه لأنه

(١) كتاب العقائد الإسلامية للشيخ سيد سابق صـ ٨٤ ، ٨٥ ط دار الفتح ط عاشرة سنة ٢٠٠٠م / ١٤٢٠هـ .

(٢) نقلا من كتاب الطفل وأحكامه للشيخ أحمد العيسوى صـ ٥١ المصدر السابق .

يكـون قد ضل عن السبيل استدلالاً بقول الله تعالى ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة: ١٣٨] .

الرد على هذا الدليل:

إن هـذا الاستدلال بهذه الآية ليس بصحيح ؛ لأن الصبغة هنا إما أن تحمـل على الدين أو على الغسل أو على الختان كما بين ذلك المفسرون فـيقول الإمـام ابـن كـثير [وقـوله: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ﴾: قـال ابن عباس: دين الله][1] .

وقال الإمام القرطبي قوله تعالى: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ﴾ قال الأخفش وغيره ديـن الله وقـال مجاهد أي فطرة الله تعالى التي فطر الناس عليها . قال أبو إسـحاق الـزجاج: وقـول مجاهـد هـذا يـرجع إلى الإسـلام ، لأن الفطرة ابـتداء الخلق وابتداء ما خلقوا عليه الإسلام . وروى عن مجاهد والحسن وأبـى العالـية وقـتادة . الـصبغة الـدين . وأصل ذلك أن النصارى كانوا يـصبغون أولادهم في الماء ، وهو الذي يسمونه المعمودية ، ويقولون هذا تطهير لهم .

وقـال ابـن عـباس: هـو أن النـصارى كانوا إذا ولد لهم ولد فأتى عليه سـبعة أيـام غمـسوه في مـاء لهـم يقـال لـه مـاء المعمـودية ، فصبغوه بذلك ليطهـروه بـه مكـان الختان ، لأن الختان تطهير ، فإذا فعلوا ذلك قالوا: الآن صـار نـصرانيا حقا ، فرد الله تعالى ذلك عليهم بأن قال: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ﴾ أي صـبغة الله أحـسن وهـي الإسلام ، فسمى الدين صبغة استعارة ومجازاً من حيث تظهر أعماله وسمته على المتدين ، كما يظهر أثر الصبغ في الثوب .

---

(١) مختـصر تفـسير ابـن كـثير اختـصار الـشيخ أحـمد محمد شاكر ج١ / صـ ١٧١ ط دار الوفاء ط أولى ٢٠٠٣م / ١٤٢٤هـ .

وقيل: إن الصبغة الاغتسال لمن أراد الدخول في الإسلام، بدلاً من معمودية النصارى.

وقيل: إن الصبغة الختان، اختتن إبراهيم فجرت الصبغة على الختان لصبغهم الغلمان في الماء][1] ا. هـ بتصرف.

وقال الإمام محمد الطاهر بن عاشور [والصبغة هنا اسم للماء الذي يغتسل به اليهود عنوانا على التوبة لمغفرة الذنوب والأصل فيها عندهم الاغتسال الذي جاء فرضه في التوراة على الكاهن إذا أراد تقديم قربان كفارة عن الخطيئة عن نفسه أو عن أهل بيته، والاغتسال الذي يغتسله الكاهن أيضا في عيد الكفارة عن خطايا بني إسرائيل في كل عام، وعند النصارى الصبغة أصلها التطهر في نهر الأردن وهو اغتسال سنه النبى يحيى بن زكرياء لمن يتوب من الذنوب فكان يحيى يعظ بهم الناس بالتوبة فإذا تابوا أتوه فيأمرهم بأن يغتسلوا في نهر الأردن رمزاً للتطهر الروحانى وكانوا يسمون ذلك معموذيت ويقولون أيضا معموذيتا وهى كلمة في اللغة الآرامية معناها الطهارة، وقد عربه العرب فقالوا معمودية بالدال امهملة. وكان عيسى ابن مريم حين تعمد بماء المعمودية أنزل الله عليه الوحى بالرسالة، ودعا اليهود إلى ما أوحى الله به إليه وحدث كفر اليهود بما جاء به عيسى وقد آمن به يحيى فنشأ الشقاق بين اليهود وبين يحيى وعيسى فرفض اليهود التعميد، وكان عيسى قد عمد الحواريين الذين آمنوا به، فتقرر في سنة النصارى تعميد من يدخل في دين النصرانية كبيرا، وقد تعمد قسطنطين قيصر الروم حين دخل في دين النصرانية، أما من يولد للنصارى فيعمدونه في اليوم

(١) جامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي ج٢، صـ ١١٥، ١١٦، المصدر السابق.

السابع من ولادته وإطلاق اسم الصبغة على المعمودية يحتمل أن يكون من مبتكرات القرآن ويحتمل أن يكون نصارى العرب سموا ذلك الغسل صبغة ، ولم أقف على ذلك ما يثبت ذلك من كلامهم في الجاهلية وظاهر كلام الراغب أنه إطلاق قديم عند النصارى إذ قال (وكانت النصارى إذا ولد لهم ولد غمسوه بعد اليوم السابع في ماء معمودية يزعمون أن ذلك صبغة لهم) .

أما وجه تسمية المعمودية (صبغة) فهو خفى إذ ليس ماء المعمودية لون فيطلق على التلطخ به مادة ص ب غ وفي دائرة المعارف الإسلامية أن أصل الكلمة من العبرية ص ب ع أي غطس . فيقتضى أنه لما عرب أبدلوا العين المهملة غينا معجمة لعله لندرة مادة صبغ بالعين المهملة في المشتقات وأياما كان فإطلاق الصبغة على ماء المعمودية أو على الإغتسال به استعارة مبنية على تشبيه وجهه تخييلى إذ تخيلوا أن التعميد يكسب المعمديه صفة النصرانية ويلونه بلونها كما يلون الصبغ ثوبا مصبوغاً وقريب منه إطلاق الصبغ على عادة القوم وخلقهم وأنشدوا لبعض ملوك همدان:

وكل أناس لهم صبغة ::: وصبغة هَمْدانَ خيرُ الصِّبَغ
صبغنا على ذلك أبناءنا ::: فأكرم بصبغتنا في الصبغ

وقد جعل النصارى في كنائسهم أحواضا صغيرة فيها ماء يزعمون أنه مخلوط ببقايا الماء الذي أهريق على عيسى حين عمده يحيى وأن ما تقاطر منه جمع وصب في ماء كثير ومن ذلك الماء تؤخذ مقادير تعتبر بركة لأنها لا تخلو عن جزء من الماء الذي تقاطر من اغتسال عيسى حين تعميده كما قال في أوائل الإنجيل الأربعة .

فقوله ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ﴾ رد على اليهود والنصارى معا أما اليهود فلأن

الصبغة نشأت فيهم وأما النصارى فلأنها سنة مستمرة فيهم ، ولما كانت المعمودية مشروعة لهم لغلبة تأثير المحسوسات على عقائدهم رد عليهم بأن صبغة الإسلام الاعتقاد والعمل المشار إليهما بقوله ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٣٦] إلى قوله ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦] أي إن كان إيمانكم حاصلا بصبغة القسيس فإيماننا بصبغ الله وتلوينه أي تكييفه الإيمان في الفطرة مع إرشاده إليه ، فإطلاق الصبغة على الإيمان استعارة علاقتها المشابهة وهى مشابهة خفية حسنها قصد المشاكلة ، والمشكلة من المحسنات البديعيه ومرجعها إلى الاستعارة وإنما قصد المشاكلة باعث على الاستعارة ، وإنما سماها العلماء المشاكلة لخفاء وجه التشبيه فأغفلوا أن يسموها استعارة وسموها المشاكلة ، وإنما هى الإتيان بالاستعارة لداعى مشاكلة لفظ للفظ وقع معه .][1] ا . هـ

فهذا هو التفسير لهذه الآية ولم يبين المفسرون فيها أنها تغيير للخلقة بل بينوا أن الصبغة هنا على الرأى الراجح هو الدين والإيمان وأن الإنسان عليه أن يصطبغ بصبغة الإيمان ولا يغيرها لأنها الصبغة التي رضيها الله له والله أعلم .

٣- وقد استدلوا بأن الله أخبر على لسان إبليس لعنه الله متوعداً لبنى آدم أنه يأمرهم بتغير خلق الله لهم وهذا من الكبائر كما هو معلوم .

الرد على هذا الاستدلال:

فإنه قد يكون المراد بتغيير خلق الله هنا هو تغيير الفطرة التي فطر الله الناس عليها كما بين ذلك المفسرون أيضا ولعله هذا هو الراجح

(١) تفسير التحرير والتنوير للأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر عاشور ج١ صـ ٧٤٢ ، ٧٤٣ ، ٧٤٤ المصدر السابق .

والله أعلم .

وأما إذا حمل على المعنى الآخر فإنه يكون للتزيين وخصوصا للمرأة فهى التي تحب التزيين وقد تتزين لإيقاع الرجال بهن في الزنا أما تفسيرها على أن تغيير الخلق هنا هو بمعنى تغيير الفطرة فكما قال الإمام الفخر الرازى ، قوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ﴾ [النساء: ١١٩] . وللمفسرين هنا قولان: الأول: أن المراد من تغيير خلق الله تغيير دين الله ، وهو قول سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب والحسن والضحاك ومجاهد والسدى والنخعى وقتادة ، وفي تقرير هذا القول وجهان:

الوجه الأول:

أن الله تعالى فطر الخلق على الإسلام يوم أخرجهم من ظهر آدم كالذر وأشهدهم على أنفسهم أنه ربهم وآمنوا به ، فمن كفر فقد غير فطرة الله التي فطر الناس عليها وهذا معنى قوله ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة ولكن أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه**» .

والوجه الثاني:

في تقرير هذا القول: أن المراد من تغيير دين الله هو تبديل الحلال حرام أو الحرام حلالاً .

ويخطر ببالى هنا وجه آخر في تخريج الآية على سبيل المعنى وذلك لأن دخول الضرر والمرض في الشيء يكون على ثلاثة أوجه: التشوش ، والنقصان ، والبطلان . فادعى الشيطان لعنه الله إلقاء أكثر الخلق في مرض الدين ، وضرر الدين هو قوله (ولأمنينهم) ثم إن هذا المرض لا بد وأن يكون على أحد الأوجه الثلاثة التي ذكرناها ، وهى التشوش والنقصان والبطلان ، فأما التشوش فالإشارة إليه بقوله (ولأمنينهم) وذلك لأن

صاحب الأمانى يشغل عقله وفكره في استخراج المعانى الدقيقة والحيل والوسائل اللطيفة في تحصيل المطالب الشهوانية والغضبية ، فهذا مرض روحانى من جنس التشوش ، وأما النقصان ، فالإشارة إليه بقوله: ﴿ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ﴾ [النساء: ١١٩] وذلك لأن بتك الآذان نوع نقصان ، وهذا لأن الإنسان إذا صار مستغرق العقل في طلب الدنيا صار فاتر الرأى ضعيف الحزم في طلب الآخرة ، وأما البطلان فالإشارة إليه بقوله ﴿ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ١١٩] وذلك لأن التغيير يوجب بطلان الصفة الحاصلة في المدة الأولى .

ومن المعلوم أن من بقى مواظبا على طلب اللذات العاجلة معرضا عن السعادات الروحانية فلا يزال يزيد في قلبه الرغبة في الدنيا والنفرة عن الآخرة ولا تزال تتزايد هذه الأحوال إلى أن يتغير القلب بالكلية فلا يخطر بباله ذكر الآخرة البتة ، ولا يزول عن خاطره حب الدنيا البتة ، فتكون حركته وسكونه وقوله وفعله لأجل الدنيا ، وذلك يوجب تغيير الخلقة لأن الأرواح البشرية إنما دخلت في هذا العالم الجسمانى على سبيل السفر ، وهى متوجهة إلى عالم القيامة ، فإذا نسيت معادها وألفت هذه المحسوسات التي لابد من انقضائها وفنائها كان هذا بالحقيقة تغييراً للخلقة ، وهو كما قال تعالى ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ ﴾ [الحشر: ١٩] وقال ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]](1) ا . هـ بتصرف .

وقال الإمام ابن كثير [وقال ابن عباس - في رواية عنه - ومجاهد

(١) تفسير الفخر الرازى الإمام محمد الرازى فخر الدين ج٦ / صـ ٤٩ ، ٥٠ المصدر السابق .

وعكرمه والنخعى والحسن وقتادة وغيرهم في قوله: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: ١١٩] يعنى: دين الله، عز وجل. وهذا كقوله ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] على قول من جعل ذلك أمراً، أي لا تبدلوا فطرة الله ودعوا الناس على فطرتهم، كما ثبت في الصحيحين عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تجدون بها من جدعاء**».

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حِمَار قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله عز وجل: إنى خلقت عبادى حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم**»](١).

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي [قال بعض العلماء: معنى هذه الآية أن الشيطان يأمرهم بالكفر وتغيير فطرة الإسلام التي خلقهم الله عليها، وهذا القول يبينه ويشهد له قوله تعالى ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] إذا المعنى على التحقيق لا تبدلوا فطرة الله التي خلقكم عليها بالكفر. فقوله ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] خبر أريد به الإنشاء إيذانا بأنه لا ينبغي إلا أن يمتثل حتى كأنه خبر واقع بالفعل لا محالة، ويشهد لهذا ما ثبت في الصحيحين من حديث أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال النبى ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تجدون بها من جدعاء**» وما رواه مسلم في صحيحه عياض بن حمار أبى حمار التميمي قال: قال رسول الله ﷺ قال الله عز وجل: «**إنى خلقت**

(١) مختصر ابن كثير اختصار الشيخ أحمد محمد شاكر ج١ / صـ ٥٠٨ المصدر السابق.

عبادى حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم» أما على القول بأن المراد في الآية بتغيير خلق الله خصاء الدواب ، والقول بأن المراد به الوشم فلا بيان في الآية المذكورة][1] .

وأما حمل الآية على المعنى الآخر الذي يكون للتزين وخصوصا تزيين المرأة لإيقاع الرجال بهن في الزنى فقال الإمام الرازى [قال الحسن: المراد ما روى عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ: «لعن الله الواصلات والواشمات» قال: وذلك لأن المرأة تتوصل بهذه الأفعال إلى الزنى[2] .

قلت: فالآية الراجح والله أعلم أنها تحمل على تغيير الفطرة لأن ذلك تبديل لخلق الله فلا يصح الاستدلال بهذه الآية على المعنى الذي ذكروه والله أعلم .

ثانيا مناقشتهم في أدلة المعقول:

فقد استدلوا بأن ذلك سوف يكون له من السلبيات على المجتمع وأنه مما لا شك فيه سوف يختل ميزان المجتمع وذلك إما أن تطغى نسبة الذكور على الإناث في المجتمع الذي يحب الذكور أو أن تطغى نسبة الإناث على الذكورفى المجتمع الذي يحب الإناث .

الرد على هذا الاستدلال: فإن كانت هناك آثار سلبية إلا أننا لا نستطيع أن نقول أنه ليس هناك آثار إيجابية وهى أعظم من الآثار السلبية فكما يقول الدكتور عباس الباز [إلا أنه لا يمكن بالمقابل أن نغفل الآثار الإيجابية التي قد تتحقق من مثل هذه العملية ، حيث يمكن أن نلمس

(١) تفسير أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجكنى الشنقيطى ط دار الحديث سنة ٢٠٠٦م / ١٤٢٦هـ .

(٢) تفسير الفخر الرازى للإمام محمد الرازى فخر الدين ج٦ / صـ ٤٩ المصدر السابق .

الآثار الإيجابية التي تترتب على اختيار جنس المولود في المجالات النفسية والاجتماعية عند الكثير من أفراد المجتمع ، فالرغبة الأسرية الكامنة في نفس الأبوين في أن يكون عندهما مولود ذكر يمكن أن تتحقق من خلال التحديد المسبق لجنس المولود الذكر بخاصة عند الأسر التي رزقت المواليد الإناث ولم ترزق المواليد الذكور ، فقد تجد في الأسرة الواحدة خمسا أو ستا أو أقل أو أكثر من المواليد الإناث فيرغب الأبوان أن يكون لهما مولود ذكر تلبية لرغبتهما الفطرية وصونا لهما في شيخوختهما ، وحفظاً لأخواته من الإناث وعونا لهن ، وتشتد هذه الرغبة عند الأسرة المحافظة التي تصون المرأة عن التبذل والخروج من البيت للبحث عن عمل لتنفق منه على نفسها ، فيكون وجود الأخ أو الإبن الذكر حافظاً لهؤلاء البنات وصائنا لهن من أي مهانة .

وقد رأينا هذه الرغبة عند أرفع الناس مكاناً ، وأكثرهم إيماناً ، وأقربهم منزلة من الله تبارك وتعالى سيد الأولين والآخرين وخير خلق الله أجمعين سيدنا محمد ﷺ حيث ظهرت هذه الرغبة في نفسه عليه الصلاة والسلام ولم يستطع لها كتمانا لما مات ابنه إبراهيم ، فإنه عليه السلام كغيره من الآباء يطمع أن يكون له ابن ذكر يشبع فطرته ويلبى غريزته ، ويكون عونا له على مصائب الدهر ، إلا أن حكمة الله تعالى أبت عليه ذلك ، فقد رزق الرسول ﷺ من الذرية القاسم وعبد الله وإبراهيم ومن البنات زينب ورقيه وأم كلثوم وفاطمة وكلهم من زوجته خديجه إلا إبراهيم فكان من مارية القبطية أما الأبناء الذكور فقد ماتوا جميعا في حياته ولم يعش منهم أحد ، ولذلك اشتد الأمر على رسول الله ﷺ ، فلما حضرت الوفاة ابنه إبراهيم بكى عليه السلام بكاء يشعر بعاطفة الأبوة نحو فقدان الابن الذكر ، فقد أخرج البخارى في صحيحه

عن أنس أن رسول الله ﷺ دخل على ابنه إبراهيم وهو يجود بنفسه فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله: فقال عليه السلام: «**يا ابن عوف إنها رحمة**»، ثم أتبعها بأخرى فقال: «**إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون**».

فإذا كان هذا من الرسول ﷺ فكيف بمن هم دونه من الناس في الإيمان والمنزلة؟ أضف إلى ذلك أن المجتمع قديما وحديثا ما زال يعير الرجل الذي ليس عنده ذكور، وهذه العادة وإن كانت ذميمة يرفضها الشرع ويمقتها إلا أنها موجودة ولم يسلم منها سيد الخلق محمد ﷺ، فقد عيره بعض كفر قريش وعلى رأسهم العاص بن وائل بأنه أبتر أي: أقطع ليس له من الذرية إلا الإناث وأنه كلما رزق بمولود ذكر فإنه يموت وقد شق ذلك على الرسول ﷺ وآلمه، فقد ذكر ابن كثير في تفسير قوله تعالى في سورة الكوثر ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ [الكوثر: ٣] أنها نزلت في العاص بن وائل، لأنه كان إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول: دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له، فإذا هلك انقطع ذكره، فأنزل الله هذه السورة ليرد عليه، وقيل: نزلت في أبي لهب وذلك حين مات ابن لرسول الله ﷺ حيث ذهب أبو لهب إلى المشركين فقال بتر محمد الليلة فأنزل الله في ذلك ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ قال السدى من أئمة التفسير: كان إذا مات ذكور الرجل قالوا: بتر، فلما مات أبناء الرسول ﷺ قالوا: بتر محمد فأنزل الله ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [1].

(١) كتاب دراسات فقهية في قضايا طبية معاصرة للدكتور عباس محمد الباز ج٢ / صـ ٨٧٧، ٨٧٨، ٨٧٩ المصدر السابق.

فقد تبين أن الإيجابيات في هذه العملية أعظم من السلبيات التي قدمت .

وأما قولهم بأنه سوف يحدث اختلال في توازن الطبيعة فإنه يدفع هذا الاختلال وينضبط بالشروط التي ذكرها أصحاب الرأي الثالث والله أعلم .

٢- وقد استدلوا بأن عورة المرأة سوف تظهر وهذا محرم شرعاً .

الرد على هذا الاستدلال:

أن عورة المرأة يجوز كشفها عند حالة الضرورة كما بين ذلك أهل العلم وقد بين أصحاب الرأى الثالث أن هذه ضرورة ومن المعلوم أن الضرورات تبيح المحظورات وقد قال الدكتور رضا عبد الحليم عبد المجيد في شأن جواز كشف عورة المرأة عند الضرورة [الأصل في الشريعة أن كشف عورة الرجل حرام على الرجل والمرأة كما تظل عورة المرأة حرام على المرأة والرجل أيضا ، ولا ينحسر هذا التحريم إلا في شأن العلاج ومقام الطبابة ، وطالما توفر هذا الشرط - أي الحاجة الطبية - وتوافرت تقوى الله وصلاح النية فلا إثم ولا بأس ، فهذا استثناء من القاعدة تبرر حالة الضرورة ، التي يجب أن تقدر بقدرها .

وقد قال البعض بأنه يجب قصر العمل في مجال أمراض النساء والتوليد على النساء فحسب وذلك لتجنب هذا الحرج الدينى ، إلا أن الأمر لا يخلو من صعوبات منهجية وعلمية ، فليس هذا هو المجال الوحيد للطب التي يقتضى اطلاع جنس على عورة الجنس الآخر فهل يمكن قصر علاج النساء على الطبيبات وعلاج الرجال على الأطباء فقط في كافة فروع الطب؟ ثم ما الحل إن لم تكن أعداد الطبيبات كافية في هذه الفروع ، فهو من أشق فروع الطب دراسة ، إن لم يكن أشقها على الإطلاق .

ولا يعنى هذا عدم الاحتياط والحرص، فيجب أن يضع الإنسان لنفسه ضوابط وترتيبات حتى لا يقع في الإثم، فقد انتهت ندوة الإنجاب في ضوء الإسلام إلى «جواز نظر الجنس إلى عورة الجنس الآخر، لدواعى الكشف الطبى والمعالجة والتعليم، مع الاقتصار فيما يبدو من العورة على ما تدعو إليه الحاجة» كما أن مجلس مجمع الفقه الإسلامى قد انتهى إلى أن «انكشاف المرأة المسلمة على غير من يحرم بينها وبينه الاتصال الجنسى لا يجوز بحال من الأحوال إلا بغرض مشروع يعتبره الشرع مبيحا لهذا الانكشاف.

(ب) إن احتياج المرأة إلى العلاج من مرض يؤذيها أو من حالة غير طبيعية في جسمها تسبب لها إزعاجا يعتبر ذلك غرضا مشروعا يبيح لها الانكشاف على غير زوجها لهذا العلاج وعندئذ يتقيد ذلك الانكشاف بقدر الضرورة.

(ج) كما كان انكشاف المرأة على غير من يحل بينها وبينه الاتصال الجنسى مباحا لغرض مشروع يجب أن يكون المعالج امرأة مسلمة إن أمكن ذلك، إلا امرأة غير مسلمة، وإلا فطبيب مسلم ثقة، وإلا فغير مسلم بهذا الترتيب، ولا تجوز الخلوة بين المعالج والمرأة التي يعالجها إلا بحضور زوجها أو امرأة أخرى][1].

وبهذا يجوز للمرأة في هذه العملية أن تكشف العورة أمام الجنس الآخر بقدر الحاجة إن لم تجد طبيبة مسلمة أو غير مسلمة لأنا قد بينا أنها من الضروريات والله أعلم.

(١) كتاب النظام القانون للإنجاب الصناعى للدكتور / رضا عبد الحليم عبد المجيد وهو رسالة للحصول على درجة الدكتوراه بكلية الحقوق صـ ٢٦٦، ٢٦٧ بدون طبع.

فمع مناقشة هذا الرأى رأينا أن هذا الرأى لا يصلح للاحتجاج والأخذ به والله أعلم .

الرأى الثاني: وهم القائلون بالإباحة مطلقا:

إن أدلة هذا الرأى قوية في الاستدلال ولكن القول بالإباحة مطلقا يؤدى إلى اختلال في توازن الطبيعة وقد يؤدى إلى عدم التوكل على الله لذلك فإن الرأي الثالث الذي ضبطه بشروط هو أقوى منه والله أعلم .

الرأى الرابع: وهم القائلون بالتوقف:

فنرى أن هذا الرأى قد سلم من المناقشة لأنه لم يبد رأياً في المسألة ولكن أرى والله أعلم أن العلماء لا بد لهم أن يتصدوا للمسائل الحديثة فإن إبداء رأيهم تزيد الرأى قوة وحجة فكان إبداء رأيهم أولى من التوقف والله أعلم .

الرأى الراجح:

فإن الرأى الراجح والله أعلم هم أصحاب الرأى الثالث القائلون بالتفصيل في هذه المسألة وهو أن تكون العملية مباحة بالشروط والضوابط التي وضعوها وإذا ما نقص شرط من الشروط فإنها تكون محرمة فنجد أن هذا الرأى بهذه الشروط والضوابط وقوة ما استدلو به من الأدلة أصبح هو الرأى الراجح والله اعلم .